إن حالة الوحي تكررت مرات كثيرة، في حياة رسول الله ﷺ بعد بعثته، وكانت تلك الحالة معروفة للصحابة، وكانت تتسم لحظاتها بالسكينة والوقار، وكان الصحابة يُـطْرِقُـونَ خلالها بانتظار سماع الوحي الجديد، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: «وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي»(١).

إن التلقي عن الله تعالى، حتى وإن كان عن طريق الملك، أمر خارج عن معهود الناس، إنه أمر عجيب، لكنه حدث مرات كثيرة على عهد رسول الله ﷺ وأحس بحدوثه كثيرون، ورأوا مظاهره رأي العين، وتَلَقَّوْا ثمرته، وهي هذا القرآن العظيم الذي تلاه رسول الله ﷺ على الناس، وحفظه عنه صحابته، وكتبوه، وعلَّمُوه من جاء بعدهم، وتناقلته الأمة خلال العصور.

المبحث الخامس

حفظ النبي ﷺ للقرآن

أَدْرَكَ رسول الله ﷺ حقيقة دوره الجديد بعد ما نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ۝١﴾ [العلق]، ونداء جبريل له: يا محمد أنت رسول الله حقاً، ثم نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر]. وأن عليه أن يحمل الرسالة الإلهية ويدعو إليها الناس من حوله، وكانت طريقة تلقيه القرآن من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لا تعطيه الفرصة للمراجعة والحفظ في لحظة التلقي، فكانت هذه الحالة تثير قلقه وخوفه من فقدان شيء من ألفاظ القرآن في وقت تلقيه من الملك.

وكان رسول الله ﷺ يَتَعَجَّلُ في بادئ الأمر في حفظ القرآن، فيسابق جبريل، وهو يلقي إليه القرآن ساعة الوحي، فيردد الآيات قبل أن ينتهي الملك، مخافة أن ينسى منها شيئاً، وكان ذلك مما يشق عليه، فجاء القرآن يطمئنه في أول

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ١٢٨، والبيهقي: دلائل النبوة ٧/ ٥٤.

الطريق، ويتكفل له بالحفظ المطلق للقرآن، وينهاه عن تلك العجلة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

وجاءت آيات أُخرىٰ تؤكد أن حفظ القرآن مكفول للنبي ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

وقد روى البخاري في صحيحه تفسيراً لهذه الآيات عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، جاء فيه: إن رسول الله ﷺ كان يعالج من التنزيل شِدَّةً، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه، يخشى أن ينفلت منه، فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ جمعه: أن نجمعه في صدرك (أي أن تحفظه) وقرآنه: أن تقرأه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: فإذا أنزلناه فاستمع وأنصت. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾: ثم إن علينا أن نُبَيِّنَهُ بلسانك، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل[1].

وهذه الآيات الكريمة تؤكد أمراً هاماً، هو تَكَفُّلُ الله المطلق بشأن القرآن، وحياً وحفظاً وجمعاً وبياناً، وإسناده إليه ـ سبحانه ـ بكليته، فليس للرسول ﷺ من أمره إلا وَعْيُهُ وحِفْظُهُ وتبليغُهُ، بعد أن أعطاه الله مَلَكة تامة للحفظ، فصار إذا أتاه جبريل استمع، فإذا ذهب جبريل قرأه كما قرأه عليه جبريل، يحفظ السورة الطويلة كما يحفظ السورة القصيرة، وليس هناك فرصة لنسيان شيء منه أو ضياعه.

وإلى جانب هذا الاستعداد الدائم الذي خص الله به النبي ﷺ لحفظ القرآن، فإن جبريل عليه السلام كان يدارسه ما نزل عليه من القرآن في كل مرة، كما في الحديث

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٦ و ٦/ ٢٠٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ١٩٨.

الذي رواه البخاري عن ابن عباس، حيث قال: «كان رسول الله أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فَلَرسولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بالخير من الريح المرسلة»[1].

وكانت ثمرة ذلك التمكين لحفظ القرآن، وهذه المدارسة له بين رسول الله وجبريل أَنْ حَفِظَ رسولُ الله ﷺ القرآن حفظاً لاحظَّ للنسيان فيه، قال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يتذكر القرآن في نفسه، مخافة أن ينسى، فقال الله عز وجل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى] »[2]. فقرأه على الصحابة، فكان بعضهم يكتبه، وكان آخرون يحفظونه، وأَدَّوْهُ إلى مَن جاء بعدهم من أجيال المسلمين، وظل القرآن محفوظاً كما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ حتى يومنا هذا.

المبحث السادس
تنجيم القرآن والحكمة منه

أولاً ـ نزول القرآن مُنَجَّماً:

لم ينزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مرة واحدة، وإنما نزل مفرَّقاً، وظل جبريل ينزل عليه بالقرآن مدة ثلاث وعشرين سنة، في الرأي الراجح، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عباس أنه قال: «بُعِثَ رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين»[3].

ونزول القرآن مفرقاً يسميه العلماء تنجيم القرآن، ويُسَمُّونَ الشيء النازل منه في المرة الواحدة نَجْماً، لأن من معاني النجم في اللغة «الوقت المضروب» وقد

---

(١) صحيح البخاري ١/٦. وينظر: البيهقي: دلائل النبوة ٧/١٤٦.

(٢) تفسير مجاهد ص٧٥٢. وينظر: الطبري: جامع البيان ٣٠/ ١٥٤.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٢٢٧، وينظر: الترمذي: كتاب السنن ٥/ ٥٥٢.

قالت العرب: «نَجَّمْتُ المالَ، إذا أَدَّيْتَهُ نجوماً... وقد جعل فلان مالَهُ على فلان نجوماً معدودة يؤدي عند انقضاء كل شهر منها نجماً، وقد نجَّمها عليه تنجيماً»(١). قال أبو شامة المقدسي: «فلما قَطَّعَ اللهُ سبحانه القرآنَ وأنزله مفرقاً قيل لتفاريقه نجوم»(٢).

وأثار المشركون مسألة نزول القرآن منجماً في سلسلة معارضتهم الباطلة للنبي ﷺ وتمنوا نزول القرآن جملة واحدة، على نحو ما حكى القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان].

وللعلماء والمفسرين تحقيقات في الجهة التي ينزل منها جبريل عليه السلام بالقرآن على النبي ﷺ وهذه قضية تستند أساساً إلى ما ورد عنها في القرآن الكريم، ويعتقد العلماء أن القرآن مثبت عند الله تعالى في أم الكتاب، في اللوح المحفوظ، مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج]. قال المفسرون: إن القرآن مثبت عند الله سبحانه في اللوح المحفوظ، وسُمِّيَ أُمَّ الكتابِ لأنه الأصل الذي أُثبتت فيه الكتب السماوية(٣). وقد حمل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة] على اللوح المحفوظ، والمطهرون الملائكة(٤).

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ١٦/ ٤٧ نجم.

(٢) المرشد الوجيز ص١٨.

(٣) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢٥/ ٤٨ و ٣٠/ ١٤٠، والنسفي: مدرك التنزيل ٤/ ١١٣، والبيضاوي: أنوار التنزيل ٢/ ٣٦٨.

(٤) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢٧/ ٢٠٣.

ويعتقد كثير من العلماء والمفسرين أن القرآن أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وكان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن بعد ذلك مفرقاً على النبي ﷺ وكانوا في ذلك يستندون إلى تفسير عدد من الآيات الكريمة التي تتحدث عن إنزال القرآن الكريم، وهي قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة].

﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴿٣﴾﴾ [الدخان].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر].

وهذه الآيات الكريمة تتحدث عن وقت نزول القرآن، ولا تشير إلى الكيفية إلا إشارة عامة، كما أشارت آيات أُخرىٰ إلى هذا المعنى أيضاً، لكن المفسرين ينقلون عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أنه فَسَّرَ هذه الآيات بقوله: «أنزل الله تعالى القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، في شهر رمضان إلى السماء الدنيا، ثم نَزَلَ به جبريل عليه السلام مفرقاً على النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، حتى أَتمَّه»[١].

ونقل المفسرون قولاً آخر في تفسير هذه الآيات عن أحد كبار التابعين هو عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٣هـ على خلاف) الذي قال: نَزَلَ أول القرآن في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة[٢]. وقد قال ابن حجر: إن القول المعتمد الصحيح هو أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك مفرقاً[٣].

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢/ ١٤٤ و٢٥/ ١٠٧ و٣٠/ ٢٥٨. وأبو شامة: المرشد الوجيز ص١٧، والسيوطي: الإتقان ١/ ١١٦.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان ٣٠/ ٢٥٨، والسيوطي: الإتقان ١/ ١١٨.

(٣) فتح الباري: ٩/ ٤.